

تطور العلاقات الفاطمية البيرزنية متدقيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الخامس الهجرى

٢٩٧-٤٤٧ هـ / ٩٠٩ - ١٠٥٦ م

دكتور

بدر عبد الرحمن محمد

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد

بكلية آداب بنها

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية

منذ قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الخامس الهجرى

٢٩٧ - ٤٤٧ هـ / ٩٠٩ - ١٠٥٦ م

دكتور

بدر عبد الرحمن محمد

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

بكلية آداب بنها

الطبعة الأولى

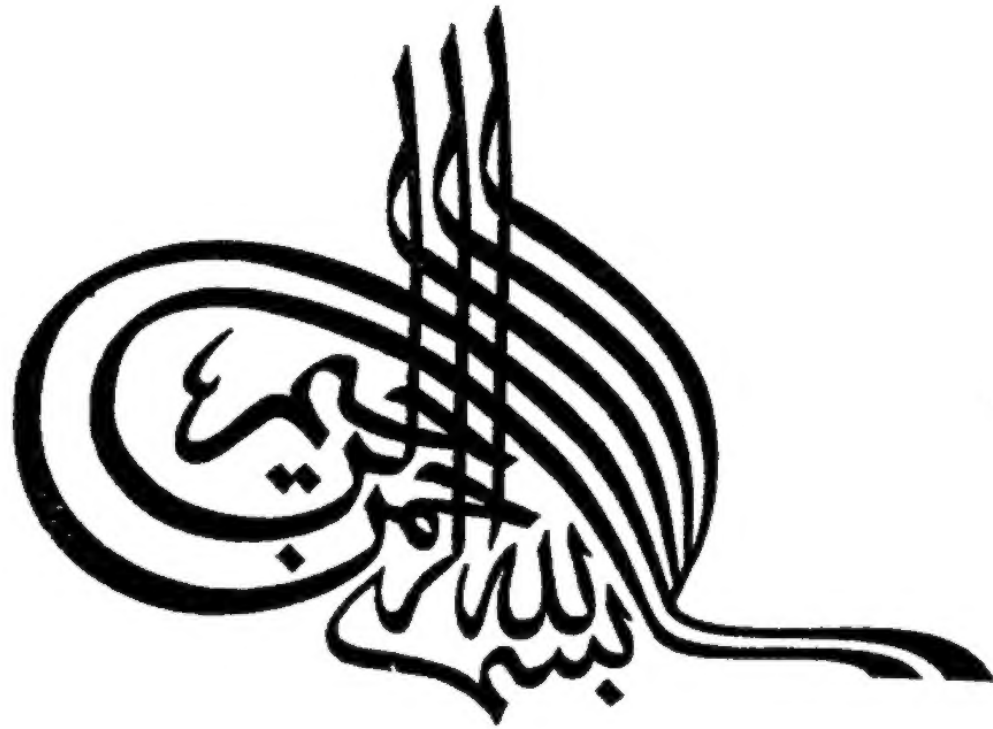
١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

sharif mahmoud



sharif mahmoud

- تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية
منذ قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب
حتى منتصف القرن الخامس الهجرى
٢٩٧ - ٤٤٧هـ / ٩٠٩ - ١٠٥٦م
- استيلاء الفاطميين على صقلية ومناقضتهم للنفوذ البيزنطى فى الشمال
الأفريقى .
 - التدخل البيزنطى فى الشام قبيل انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر .
 - سياسة الفاطميين تجاه البيزنطيين منذ انتقالهم إلى مصر حتى عهد
المستنصر بالله الفاطمى .
 - فيضان نهر النيل وأثره على الإنتاج الزراعى فى مصر فى العصر
الفاطمى الأول .
 - القاضى أبو عبد الله القضاعى رسول المستنصر .
 - أوضاع الدولة البيزنطية فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى
(الخامس الهجرى)
 - فشل المباحثات الفاطمية البيزنطية .

تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية
منذ قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب
حتى منتصف القرن الخامس الهجرى
٢٩٧ - ٤٤٧ هـ / ٩٠٩ - ١٠٥٦ م

استيلاء الفاطميين على صقلية ومناقضتهم النفوذ البيزنطى فى
الشمال الأفريقى :

أصبحت جزيرة صقلية منذ أن تيسر للمسلمين فتحها فى
مستهل القرن الثالث الهجرى ولاية يتناوب حكمها ولاية من قبل
أمراء الأغالبة، واستمر الحال على ذلك إلى أن زحف أبو عبد
الله الشيعى - داعى الفاطميين فى بلاد المغرب على أفريقية ،
وتمكن من الاستيلاء على كثير من مدنها سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧
٠ ٩٠٨ م ثم التقت قواته بأصحاب زيادة الله الثالث (١) آخر
أمراء الأغالبة (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٣ - ٩٠٩ م) فى
جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ / فبراير - مارس ٩٠٩ م فأوقعت
به الهزيمة ، واضطر هذا الأمير إلى الرحيل عن أفريقية

(١) أبو مضر زيادة الله بن أبى العباس بن عبد الله والى صقلية من قبل أبيه أبى العباس
والذى عزله عن صقلية لما اتصل به عكوفه على اللهو وإدمانه شرب الخمر وولى
محمد بن السرقوس .

ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٢٨ . نشر دوزى . الجزء الأول ليدن ١٩٤٨

بدر عبد الرحمن محمد : الأغالبة والأدراسة فى بلاد المغرب ص ٢٦ مكتبة الأنجلو
المصرية ١٩٨٦ م.

والفرار إلى مصر^(١) وفي مستهل رجب من هذه السنة دخل أبو عبد الله الشيعي رقادة ونزل ببعض قصورها^(٢) .

لما بلغ أهل صقلية ما أحرزه أبو عبد الله الشيعي من نصر على الأغلبية . ثاروا على واليهم السني الحسن بن رباح ، وولوا بدله علي ابن أبي الفوارس سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م وكتبوا إلى داعي الفاطميين يطلبون منه أن يقرهم على ما فعلوا فأجاب طلبهم^(٣) غير أن عبيد الله المهدي^(٤) - أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب - ما لبث أن عزل هذا الوالي ، وعين الحسن بن محمد بن خنزير الكتامي محله سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ - ٩١٠ م لكنه لم يستمر طويلاً في الولاية فقد ثار به السنيون من أهل صقلية لإساءته معاملتهم

(١) كان والي مصر في ذلك الوقت عيسى النوشري الذي أراد منعه من دخول مصر إلا بأمر الخليفة العباس ، إلا أن زيادة الله تمكن من عبور الجسر إلى الجيزة ليلاً .
ابن الأثير : الكامل ج٦ ص ١٢٤ . دار الكتاب العربي بيروت - لبنان ، الداعي إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ص ١٣٦ تحقيق محمد اليعلاوي دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان ط ١٩٨٥ م .

(٢) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٨٦ - ٨٧ تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٤٨ م ، إدريس بن عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٣) انظر أماري : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٣٤ ، محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣٢ ، دار الفكر العربي ١٩٧٦ م .

(٤) المهدي بالله أبو محمد عبد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد إسماعيل جعفر الصادق ولد سنة ستين ومائتين يوم الاثنين الثاني عشر من شهر شوال وقبل مولده في سنة تسع وخمسين ومائتين بمدينة عسكر مكرم نجوزستان : الداعي إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ١٤٣ .

وحبسوه^(١) فولى عبيد الله المهدي مكانه على بن عمر البلوى - ولم يكن أقل تعسفاً من سلفه ، فخرج أهل الجزيرة على طاعته - وبخاصة العناصر العربية التي ساءها أن يولى عليهم الفاطميون والياً من البربر .. ووقع اختيار زعمائهم سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢-٩١٣ على أحمد قرعب^(٢) - وكان عربياً - غير أن هذا الوالى لم تطل ولايته، فقد ثار به الجند بسبب طموحه إلى تدعيم نفوذه بصقلية ، ولم يلبث أن انحرف عن الفاطميين وأعلن ولاءه للمقتدر العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٨-٩٣٢م) فأقام له الخطبة بدلاً من عبيد الله المهدي ، ولم يكتف بذلك ، بل أنفذ أسطوله لمهاجمة سواحل بلاد المغرب، واستطاع فى بادئ الأمر أن يوقع الهزيمة بالأسطول الفاطمي عند ساحل أفريقية ، لكن الفاطميين سرعان ما ضاعفوا جهدهم فى إعداد أسطولهم، وأحلقوا الهزيمة بقوات ابن قرعب حين شرعت فى مهاجمة أفريقية، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى المهدي حيث قتل^(٣) وبذلك استعاد الفاطميون سيادتهم على جزيرة صقلية.

ويذكر الداعى أدريس عماد الدين^(٤) أن عبيد الله المهدي أخرج لغزو الروم جعفر بن محمد بن عبيد فى جيش عظيم فسار إلى صقلية وخرج منها فى أسطول كبير فنفذ فى أول يوم من سنة اثنتى عشر وثلاثمائة فغزا

(١) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٢٠٧ بولاق ١٢٨٤هـ ، الداعى إدريس تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ١٨٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٣ .

(٣) ابن خلدون : ج٤ ص ٢٠٧ ، حسن إبراهيم حسن ، طه أحمد شرف كتاب عبيد الله المهدي ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٤) تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ص ٢١٤ تحقيق / محمد اليعلاوى دار الغرب الإسلامى ١٩٨٥ م .

النصرانية وجاوز العدو الأخرى إلى بلد الروم فأفتتح مدناً كثيرة أكثرها بالسيف عنوة ، وسبى سبباً كثير قيل أنه بلغ أحد عشر ألف ووافى بهم إلى المهدي بالله وكان وصوله بهم إلى المهدي لإحدى عشر ليلة خلت من جمادى الأخرى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة .

ويذكر (١) أنه بعد وفاة المهدي بالله " أخرج أمير المؤمنين القائم بأمر الله، يعقوب بن إسحاق التميمي لغزو الروم فخرج يعقوب من المهدي يوم الأحد .. لست ليالى خلون من شهر رجب من سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة (يوليه ٩٣٤م) فى عشرين مركباً فغزوا الروم من جهة الأندلس ووافى فى طريقه مراكب الروم وفيها تجاراتهم فأخذها وأسر من فيها وتمادى فى السير إلى بلد الروم فنزل على مدينة منيعة هنالك تعرف بـ " جنوة " فقاتل من بها قتالاً شديداً فامتنعوا منه بسور المدينة فمازال يقاتلهم حتى ملك عليهم سور المدينة فقاتلوه فى أزقة المدينة فرزقه الله النصر عليهم... فملك المدينة وجميع ما فيها وقتل مقاتلة من النصارى والمشركين وسبى ذراريهم وغنم جميع ما فى المدينة من البذر والحرير والكتان وغير ذلك ، ثم أضرمها بالنيران وجميع كنائسها وقصورها وبقية امتعتها مما ثقل حمله وتسامع به الروم فجأؤوه من كل ناحية وقاتلوه فمنحه الله النصر عليهم فقتلهم قتلاً ذريعاً مبرحاً وعاد يعقوب ظافراً منصوراً.. فوافى ساحل المهدي بجميع من كان معه.. لأربع بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة (أغسطس ٩٣٥م) وأخرج السبى وزين الأسطول .. وكان السبى الذين جاء بهم ثمانية آلاف نفس " .

كان الفاطميون يحرصون على الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الجزيرة لاتخاذها قاعدة لأسطولهم فى البحر المتوسط ، لصدد الحملات التى يوجهها

(١) الداعى أدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

الروم نحو أفريقية^(١) ، ومن ثم استمروا فى إرسال ولايتهم إليها حتى قامت ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد^(٢) ، فلما قضى على هذه الثورة عين المنصور الفاطمى^(٣) (٣٣٤ - ٣٤١ هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢ م) الحسن بن على الكلبى والياً على صقلية سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ - ٩٤٨ م وفى عهده تفاقم النزاع بينه وبين مسيحي صقلية الذين لجأوا إلى قسطنطين السابع^(٤) (٩١٣ - ٩٥٩ م /

(١) جمال سرور : سياسة الفاطميين ص ٢٣٣ .

(٢) هو أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد من قبيلة يفرن الزناتية ، اشتغل بتعليم الصبيان القرآن والعلوم الدينية فى مدينة نقيوس من مدن قسطنطينية الكبار . أخذ يدعو تكفير الشيعة والخروج على سلطان الفاطميين الذين أنحرفوا عن مبادئ الإسلام ، ثم اتجه فى دعوته منذ سنة ٣١٦ هـ إلى تغيير المنكر ، فلما توفى عبيد الله المهدي خرج من نقيوس ورحل إلى جبل أوراس وانضم إليه عدد كبير من البربر الساخطين على الحكم الفاطمى وقد استغرقت ثورته عشرون سنة انتهت بوفاة سنة ٣٣٦ هـ فأمر المنصور الفاطمى بسلخ جلده وحشوه تبناً ، انظر الداعى إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٢٦٤ - ٤٥٢ .، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ص ٥٣٦ - ٥٤٥ مؤسسة شباب الجامعة أسكندرية :

(٣) إسماعيل أبو طاهر .

(٤) عندما توفى ليو السادس سنة ٩١٢ م / ٢٩٩ - ٣٠٠ هـ خلفه وحيد قسطنطين السابع ، الذى كان طفلاً فى الخامسة من عمره ، وكانت السلطة الفعلية بيد عم قسطنطين إسكندر (٩١٢ - ٩١٣ م / ٢٩٩ - ٣٠١ هـ) الذى لم يلبث أن توفى بعد أن استثار عداة البلغار بسبب قطعه الجزية السنوية التى كان على الدولة البيزنطية أن تدفعها بمقتضى اتفاقية ٨٩٦ م / ٢٨٣ هـ .

Ostrogsky : Hisory of the Byzantine state. P. 231. (Oxford 1956)

سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٤٢٠ مكتبة الأنجلو المصرية ط ٤

١٩٦٦ م .

٣٠١ - ٣٤٨ هـ) إمبراطور الدولة البيزنطية^(١) لنجدتهم ، قلبى طلبهم وأنفذ الهزيمة بالجيش البيزنطى ، وأضطر الإمبراطور إلى طلب الصلح^(٢) .

على أن الإمبراطور البيزنطى^(٣) لم يحترم شروط الصلح الذى عقده مع الحسن الكلبى ، وأرسل إلى صقلية سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م حملة تمكنت من فتح بعض مدنها ، لكن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات التى أحرزوها فى صقلية وانسحبوا إلى قلورية^(٤) Calabria

(١) لم ينفرد قسطنطين بالحكم إلا سنة ٩٤٥ / ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ وهو فى الأربعين من عمره .

Tout (T. F.) : The Empire and the papacy. P. P. 154 - 155 (London 1924) .

(٢) ابن خلدون : ج٤ ص ٢٠٩ ، إدريس بن عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٤٩٨ .

(٣) لم يكن قسطنطين السابع خيراً من أبيه ليو السادس الذى لقب بالحكيم أو الفيلسوف ، وله فى التنظيم العسكرى ، إذ انصرف قسطنطين السابع للأدب ورسم الصور وتخطيط الكنائس ، فضلاً عن الكتب التى صنفها فى مختلف العلوم والفنون كالزراعة والتاريخ والجغرافية والسياسة وغيرها .

Diehl (C.), Marcais (G.) : Le Mond Oriental de 395 a 1081 (Hist, du Moyen Age tome 3). P. 446 .

(٤) انظر كتاب المعز لدين الله ص ٥٣ .

التدخل البيزنطى فى بلاد الشام قبيل انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر:

بعد شهور قليلة من أوائل عهد نقفور (١) فوقاس (٢) (٩٦٣ - ٩٦٩ م / ٣٥٢ - ٣٥٨) بدأت المرحلة الأولى من تدخل البيزنطيين فى الشرق وفيها تركزت حروبه فى إقليم كليكيا . وأخذت قواته تخرب الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن الرئيسية بهذه النواحي مثل المصيصة ، وأذنة وطرسوس . ولم يكن هذا التخريب لمجرد التكيل بالمسلمين والانتقام منهم ، بل كان جزءاً من خطة مرسومة سار عليها البيزنطيون فى محاربة المسلمين فقد أتبعوا سياسة تخريب وحرق الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن والقرى التى يقصدونها وأسر العاملين بها وأخذ مواشيها ، كما كانوا يخرجون وقت الحصاد ويحرقون الغلات هادفين لإضعاف تموين البلاد التى يريدون

(١) عندما توفى قسطنطين السابع ٩٥٩ م / ٣٤٨ هـ خلفه ابنه الإمبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣ م / ٣٤٨ - ٣٥٢ هـ) الذى أرسل قائده نقفور فوقاس سنة ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ لاسترداد جزيرة كريت من المسلمين فنجح نقفور فى مهمته مما أعطى الإمبراطور مركزاً استراتيجياً فى البحر المتوسط ، وبعد ذلك اتبع نقفور انتصاره بمهاجمة الحمدانيين والاستيلاء على بعض المعاقل المهمة فى قيليقية .

Vasiliev (A.A.) Histoire de l'Empire Byzantine Tom, I. P. P. 407 - 408 (Paris 1932) .

(٢) توفى رومانوس سنة ٩٦٣ م / ٣٥٢ هـ تاركاً ولديه باسل الثانى (٩٦٣ - ١٠٢٥ م / ٣٥٢ - ٤١٦ هـ) وقسطنطين الثامن (٩٦٣ - ١٠٢٨ م / ٣٥٢ - ٤١٩ هـ) تحت وصاية أمهما ثيوفانو ونتيجة للانتصارات التى أحرزها نقفور فوقاس فقد تمكن من فرض نفسه شريكاً لهذين الولدين فى حكم الإمبراطورية وبخاصة بعد أن تزوج من أمهما ثيوفانو . وقد ظل يحكم الإمبراطورية ست سنوات (٩٦٣ - ٩٦٩ م / ٣٥٢ - ٣٥٩ هـ) باسم الولدين القاصرين . ابن العديم زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج١ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

Diehl, Marcais. Op. cit. P. P. 467 - 468 .

الاستيلاء عليها حتى تضطر في النهاية إلى التسليم ، وكان ذلك عاملاً هاماً في نجاح الهجوم البيزنطي . وفي يوليو سنة ٩٦٥ م / رجب ٣٥٤ هـ تمكن نقفور من جنى ثمار مجهوداته . فإن أهالي المصيصة وطرسوس أصبحوا يعانون من قلة المؤن وارتفاع الأسعار^(١) ، مما أعان نقفور على مهاجمة المصيصة التي لم تستطع الصمود أمامه وفتحها عنوة وسمح بنهب المدينة ، كما قتل وأسر كثيرين من أهلها^(٢) .

وكان الهدف التالي لنقفور هو مدينة طرسوس التي كانت رباطاً هاماً للإسلام ، ومن أهم معاقله الشمالية ، التي لعبت دوراً كبيراً في الصراع بينه وبين بيزنطة ، كما أنها كانت في حالة لا تمكنها من مواصلة المقاومة^(٣) . ولا ريب أن مصير المصيصة وما لحق بأهلها على أيدي البيزنطيين ، حملهم على تسليم مدينتهم لنقفور الذي أمنهم على أنفسهم ، وتم ذلك في

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٣ - ١٤ دار الكتاب العربي - بيروت .
- (٢) عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٠ - ١٤١ الهيئة المصرية العامة للكتاب الأسكندرية ١٩٧٧ م .
- (٣) عمر توفيق المرجع ص ١٤١ .
- ذلك أن إمكانيات طرسوس كانت محدودة وكان المدافعون عنها يتوقعون المساعدة من سيف الدولة الحمداني (أمير حلب) الذي كان مشغولاً بنجدة أخيه ناصر الدولة الحمداني أمير الموصل في صراعه ضد معز الدولة أمير بني بويه والمتغلب على العراق والخلافة العباسية والذي كان يهدف إلى إرغام ناصر الدولة ابن حمدان على الإذعان لسلطان البويهيين .
- راجع : بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتى ظهور السلاجقة ص ٥٨ وما بعدها مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى ١٩٨٩ م .

أغسطس سنة ٩٦٥م / شعبان ٣٥٤هـ ، وكانت معاملة أهالي طرسوس أفضل من معاملته لأهالي المصيصة ، إذا سمح لكل من أراد الهجرة بالخروج من المدينة ، وأن يحمل من ماله ما يستطيع ، فقد عمل نقفور بعد ذلك على إصلاح كل من المصيصة وطرسوس وعين على كل منهما والياً من قبله^(١).

وقد أورد ياقوت الحموي رواية عن استيلاء نقفور على طرسوس تدل على بعض ما فعله هذا الإمبراطور من أجل الدعاية للمسيحية ، مما يوضح الطابع الصليبي الذي تميزت به حملاته على المسلمين في الشرق . وفيما يلي تلك الرواية : " وحدث أبو القاسم التتوخي قال أخبرني جماعة ممن جلا عن ذلك الثغر أن نقفور لما فتح طرسوس نصب في ظاهرها علمين^(٢) ونادى مناديه : من أراد بلد الملك الرحيم وأحب العدل والنصفة والأمن على المال والأهل والنفس والولد وآمن السبل وصحة الأحكام والإحسان في المعاملة وحفظ الفروج وكذا وكذا - وعد أشياء جميلة - فليصر تحت هذه العلم ليقل مع الملك الرحيم إلى بلاد الروم ، ومن أراد الزنا واللواط والجور في الأحكام والأعمال وأخذ الضرائب وتملك الضياع وغصب الأموال - وعد أشياء من هذا النوع غير جميلة - فليحصل تحت هذا العلم إلى بلاد الإسلام "^(٣) .

ولا شك أن النجاح الذي أحرزه نقفور بإخضاع المصيصة وطرسوس كان له أهميته من حيث أنه فتح الطريق أمام البيزنطيين إلى الشام ، كما أمن

(١) عمر كمال توفيق نفس المرجع ص ١٤١ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٨ - ٢٩ دار إحياء التراث العربي بيروت ويذكر ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ١ ص ١٤٣ تحقيق / سامي الدهان أن نقفور وضع رمحين وجعل على أحدهما مصحفاً وعلى الآخر صليباً .

(٣) ياقوت الحموي : نفسه .

نقفور الطريق ، وذلك باستيلاء قواته على قبرص فى نفس العام (٩٦٥ م / ٣٥٤ م) وقد تبع ذلك المرحلة الأخرى من سياسة نقفور فى الشرق ، التى امتد فيها نشاطه بوجه خاص إلى البلاد الجزرية (أعالي العراق) والشام مغيراً عليها ومخرباً أراضيها الزراعية ليمهد للاستيلاء عليها .

تتقسم جهود نقفور فى السنتين الأخيرتين من حكمه (٩٦٨ - ٩٦٩ / ٣٥٨ - ٣٥٩ هـ) إلى قسمين : أولها العمليات الحربية التى قام بها وأشرف عليها بنفسه والأخرى إمتداد هذه العمليات عن طريق قواده وجيوشه فى الشام حتى آخر عهده . ولم توجد فى الشام حينئذ قوة موحدة لدفع خطر نقفور ويقول يحيى بن سعيد الأنطاكى عن حملات هذا الإمبراطور فى الشام : " كانت غزواته قد صارت كالنزهة له ولأصحابه لأنه لم يكن يقصد لهم أحد ، ولا يخرج بين أيديهم ، وكان يقصد حيث يشاء ويخرب كيف أراد من غير أن يلقاه أحد من المسلمين ولا غيرهم ولا يدفعه عما يريد دافع ولا مانع " . وكان من أهم ما أحرزه من مكاسب استيلاء البيزنطيين على إمارة إنطاكية وفرض السيادة البيزنطية على إمارة حلب سنة ٩٦٩ / ٣٥٩ هـ (١) .

كان الاستيلاء على إنطاكية من أعظم نتائج التدخل البيزنطى فى الشام فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فإن تلك المدينة الرئيسية التى بقيت فى أيدي المسلمين منذ أن أستولوا عليها من الروم (٢) سنة ٦٣٥ م / ١٤ هـ . قد أعيدت أخيراً للحكم البيزنطى ، وأصبح يحكمها حاكم يعينه إمبراطور

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ص ١٢٨ باريس ١٩٢٤ م ، عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٢) أيام الإمبراطور هرقل الذى حكم مصر من سنة ٦١٠ إلى سنة ٦٤١ م .

بيزنطية ، كما أصبحت تلك المدينة الحصينة المعقل الأمامي للإمبراطورية البيزنطية على حدود الشام الشمالية^(١) .

أما عن مدينة حلب فكان حاكمها " قرغويه " أحد ولاة الحمدانيين ، الذي خرج على طاعة سعد الدولة الحمداني ، وقد قرر بطرس فوقاس القائد الذي تركه نقفور على رأس قواته في شمال الشام التقدم إلى حلب ، وكان تقدم البيزنطيين كافياً لإبعاد سعد الدولة عن حلب ، وحاصروا المدينة ، وقام جماعة من أهلها بالتوسط بين فوقاس وقرغويه من أجل الصلح ، ووقعت اتفاقية بين الطرفين في صفر سنة ٣٥٩هـ / ديسمبر ٩٦٩ - يناير ١٩٧٠م ، وقد أورد ابن العديم نصوص هذه الاتفاقية ، وقد وافق البيزنطيون بمقتضاها أن يحكم إمارة حلب أمير مسلم غير أنهم فرضوا عليه شروطاً تجعله مقيداً في يد البيزنطيين . وقد جاء في الاتفاقية شروطاً تتضمن تحديد البلاد التي يحكمها من قبل بيزنطة ، فضلاً عن حقوق البيزنطيين والمسلمين في هذه المنطقة^(٢) .

وفيما يتعلق بتعيين أمير حلب جاء في الاتفاقية : " أن الأمير على المسلمين قرغويه والأمر من بعده لبكجور وبعدهما ينصب ملك الروم أمير يختاره من سكان حلب وليس للمسلمين أن ينصبوا أحداً " ^(٣) ، وحدد البيزنطيون المنطقة التي يحكمها أمير حلب والتي يعتبر مسؤولاً عنها أمام بيزنطة ، وفيما يلي ما ورد عنها في كتاب ابن العديم : " والبلاد حمص

(١) لم يتمكن المسلمون من استرداد هذه المدينة إلا سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م . عمر كمال

توفيق : نفس المرجع ص ١٤٤ .

(٢) عمر كمال توفيق : ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٥ .

وجوسيه وسليمة وحماة وشيزر وكفر طاب وأفامية ومعرة النعمان وحلب وجبل السماق ومعرة مصرين وقنسرين والآثارب إلى طرف البلاط^(١) الذي يلي الآثارب وهو الرصيف إلى أرحاب^(٢) إلى باسوفان^(٣) إلى أطراف كيما^(٤) إلى برصايا^(٥) إلى المرج الذي هو قرب أعزاز^(٦) ويمين الحد كله لحلب والباقي للروم - ومن برصايا بميل إلى الشرق ويتصل وادي أبي سليمان إلى فج سنياب^(٧) إلى نافوذاً إلى أرانا إلى تل حامد إلى يمين الساجور إلى مسيل الماء إلى أن يمضى ويختلط بالفرات^(٨) .

فرضت التزامات مالية على أمير حلب يؤديها للإمبراطور البيزنطي ، فكان عليه أن يقدم جزية عن كل رأس بأمارته ، وكذلك حق الأرض فضلاً عن ضرائب فرضت على التجارة . أما عن الالتزامات العسكرية التي فرضت على أمير حلب ففيما يلي ما أورده عنها ابن العديم : " وإن ورد

(١) البلاط : مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية يشقها النهر الأسود الخارج وهي مدينة كورة الحوار ، خربت وهي من أعمال حلب . ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ١٦٤ هامش (٥) .

(٢) أرحاب : تقع في الشمال الشرقي من البلاط .

(٣) باسوفان : في جبل سمعان في الشمال من قلعة سمعان .

(٤) كيما : على اثني عشر كليوا متراً من باسوفان .

(٥) برصايا : هضبة قرب أعزاز على عدة كليو مترات من غربها الشمالي .

(٦) أعزاز : بفتح أوله وتكرير الزاي ربما قيلت بالالف في أولها والعزاز الأرض الصلبة

وهي بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم ابن العديم : جـ ١ ص ١٦٤ -

١٦٥ هامش (١٠) .

(٧) فج سنياب : يقع في شمال دابق .

(٨) ابن العديم : جـ ١ ص ١٦٣ - ١٦٥ .

عسكر إسلامي يبريد غزو الروم منعه قرغويه وقال له أمض من غير بلادنا ولا تدخل بلاد الهدنة ، فإن لم يسمع أمير ذلك الجيش قاتله ومنعه ، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم والطربازي^(١) لينفذ إليه من يدفعه - ومتى وقف المسلمون على عسكر كبير كتبوا إلى الملك وإلى رئيس العسكر وأعلموهما به لينظروا في أمرها^(٢) .

ونصت الاتفاقية على أن يقوم أمير حلب بمساعدة البيزنطيين في حالة محاربة غير المسلمين على النحو الآتي : " وأن غزا الروم غير ملة الإسلام سار إليه الأمير بعسكره وغزوا معه كما يأمره^(٣) .

كان من آثار التقدم الذي أحرزته قوات نقفور في الشرق أن عم الفزع بين المسلمين في البلاد الواقعة في طريق هذا الإمبراطور وقد كتب المؤرخ يحيى بن سعيد الأنطاكي واصفا شعور المسلمين آنذاك : " ولم يشك أحد في أن نقفور يفتح جميع الشامات وديار ربيعة وديار بكر وتحصل في يديه^(٤) . وكان يحق للمسلمين أن تساورهم المخاوف ، فضلاً عن تفكك قوى الإسلام السياسية في الشام .

(١) الطربازي : هو بييرفوقاس ابن أخي نقفور وابن لاون وهو قائد الحامية البيزنطية في سورية الشمالية وقد جاء اسمه في يحيى بن سعيد " بطرس الاسطراطو بدرخ " ابن العديم ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ هامش (٤) .

(٢) ابن العديم : ج ١ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٦ .

(٤) تاريخ يحيى بن سعد الأنطاكي ص ١٢٧ باريس ١٩٢٤ م .

سياسة الفاطميين تجاه البيزنطيين منذ إنتقالهم إلى مصر حتى عهد
المستنصر بالله الفاطمي :

واجه الفاطميون منذ تقدمت جيوشهم في بلاد الشام صعوبات كثيرة من
ناحية البيزنطيين ، والذين أخذوا يهددون حدود سوريا الشمالية بغاراتهم
المتتالية ، كما زحفت قواتهم على أنطاكية سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م واستطاعوا
بعد ذلك بمدة وجيزة أن يدخلوا حلب ويرغموا حاكمها على عقد صلح
معهم (١) .

اتجهت سياسة الفاطميين إلى استعادة المدن التي استولى عليها
البيزنطيون في شمال الشام ، ليقتضوا بذلك على الأخطار التي تهدد نفوذهم
في تلك البلاد وقام بتنفيذ هذه السياسة القائد الفاطمي جعفر بن فلاح لكن
الحملة الفاطمية التي أرسلت لإجلائهم عن أنطاكية فشلت في تحقيق هذه
الغاية ، لانشغال الفاطميين بصد القرامطة والقضاء على ما بقي لهم من نفوذ
في بلاد الشام (٢) .

استغل البيزنطيون فرصة النزاع بين الفاطميين والقرامطة
لمواصلة شن غاراتهم فتقدم إمبراطور الروم حنا زيمسكيس (٣)

(١) Hitti : History of Syria. P. 460 .

(٢) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٢٢ القاهرة ١٩٦٤ .

(٣) أدت خشونة نقفور ومسلكه تجاه شريكه الصغيرين في الحكم إلى خوف أمهما ثيوفانو
فتأمرت مع عشيقها حنا شمشقيق ضده ، ونجح المتآمرون في قتل نقفور أثناء نومه
وعندئذ أعلن حنا الأول شمشقيق إمبراطوراً (٩٦٩ - ٩٧٦م / ٣٥٨ - ٣٦٥هـ) وبدلاً
من أن يتزوج هذا الإمبراطور الجديد من ثيوفانو اعتقلها في أحد الأديرة . تاريخ يحيى
بن سعيد ص ١٣١ .

Ghon Tzymisces (١) فى سنة ٩٧٥م / ٣٦٥هـ من أنطاكية إلى حمص ، ومنها إلى بعلبك ، واضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية له ، كما سلمت له طبرية وقيسارية (٢) ، ثم سار الإمبراطور شمالاً حيث استولى على بيروت وصيداً . ولما حاول الاستيلاء على طرابلس أوقعت حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمى الهزيمة بقواته ، ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية وعاد الإمبراطور إلى القسطنطينية حيث توفى (٣) فى أوائل سنة ٩٧٦م / ٣٦٥هـ (٤) .

Diehl, Marcais. Op. cit P. P. 471 .

- والشمشقيق أو شوموشقيق وهو لفظ أرمنى بمعنى قصير القامة ولقب كذلك بلقب دمشق وهو لفظ لاتينى لقب به قائد جيش الروم . انظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٦٩ .

(١) كان الإمبراطور حنا تزمسكيس المعروف فى المصادر العربية باسم ابن الشمشقيق مهتماً بشئون الشرق الإسلامى خاصة الأراضى المسيحية المقدسة ومن أقوى الشواهد التى تدل على ذلك تلك الوثيقة التاريخية البالغة الأهمية التى حفظها لنا المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى فى رسالة بعث بها هذا الإمبراطور إلى حليفه اشوط الثالث ملك أرمينية المسيحى وفيها حدد هدفه الأساسى فى حروبه فى البلاد الشامية بقوله : " رغبتنا أن نحرر ضريح المسيح من نير المسلمين " ، عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٢) وكان مما قاله أثر عودته من حملته على هذه البلاد ما يأتى : " لم يتبق حتى الرملة وقيساريه يابس أو ماء لم يخضع لنا " كما كتب : " والآن صارت فينيقيا وفلسطين متحررة من نير المسلمين " عمر كمال توفيق ص ١٥٠ .

(٣) مات حنا الأول مسموماً

Tout : The Empire and the Papacy. P. 163 .

(٤) Cambridge Mediaeval History. Vol. IV. P. 148 .

ظل النزاع قائماً بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية حتى سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م حين أرسل الخليفة العزيز بالله (١) حملة بحرية لغزو بلاد الروم ، غير أن هذه الحملة لم تحقق الغرض الذي أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها ، ثم قدم إلى مصر رسل الإمبراطور باسيل (٢) الثاني (٢) (٩٧٦ - ١٠٢٥م / ٣٦٥ - ٤١٦هـ) تحمل هدية للخليفة العزيز وتطلب عقد الصلح بين الدولتين ، واشتملت الهدية على ثمان وعشرين صنفة من الذهب وأطباق محلاة بالذهب ، فأجاب الخليفة طلب هؤلاء السفراء واشترط للصلح عدة شروط منها :

(١) توفي الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يوم الجمعة ١٠ ربيع الثاني سنة ٣٦٥هـ / ١٧ ديسمبر سنة ٩٧٥م وخلفه ابنه نزار بن معد أبو منصور الملقب بالعزيز بالله وعمره ٢١ سنة .

محمد مختار : التوفيقات الإلهامية ص ٣٩٧ الطبعة الأولى ١٩٨٠م المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

(٢) يذكر محقق كتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ١ ص ١٩٠ هامش (٥) أن " بسيل " تكتب هكذا على عادة المؤرخين العرب ولكن يحيى بن سعيد يرسمه دائماً " باسيل " لمعرفة باللغة فتابعناه من الاسم الأعجمي .

(٣) اشتهر باسيل الثاني بلقب " سفاح البلغار " لحروبه العنيفة ضدهم والتي استمرت نحواً من ثلاثين سنة ابتداء من سنة ٩٨١م / ٣٧٠ ولكنها لم تتخذ شكلاً شاملاً إلا منذ سنة ١٠٠٢م / ٣٩٢هـ عندما أخذ يتوسع على حساب البلغار حتى انتهى الأمر بإنزال هزيمة ساحقة بهم ، كما أسر نحواً من أربعة عشر ألف بلغاري سنة ١٠١٤م / ٤٠٥هـ وقد ارتكب جريمة شنعاء في حق هؤلاء الأسرى بأن سمل كل أعين جميع الأسرى وترك لكل مائة أسير رجلاً بعين واحدة ليتولى قيادة زملائه العميان إلى ملكهم الذي سقط مغشياً عليه من هول المنظر حين رآهم ولفظ أنفاسه بعد يومين .

Vasiliev : Hist, de l'Empire Byzantine Tome. 1, P. 423, Ostrogorsky : Hist of the Byzantine State P. 257 .

- ١ - أن يطلق البيزنطيون سراح من عندهم من أسرى المسلمين .
- ٢ - الدعاء للخليفة الفاطمي بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة .
- ٣ - حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم .
- ٤ - عقد الهدنة بين الفريقين مدة سبع سنوات (١) .

لم يكن لهذه الهدنة أثر كبير في وقف تيار الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين لأن سعيد الدولة أبا الفضائل بن حمدان أمير الحمدانيين في حلب (٢) ، لما علم بتوغل الفاطميين في بلاد الشام استتجد بإمبراطور الروم ياسيل الثاني فأمدّه الإمبراطور بحملة ، والتقت القوات المصرية والبيزنطية على ضفاف نهر العاصي ، ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين سنة ٣٨١هـ / ٩٩١ - ٩٩٢م وعاد القائد الفاطمي منجوتكين إلى دمشق لتنفيذ الأوامر ، فاستاء العزيز لذلك وأمره بفتح حلب ، وأرسل إليه المؤمن ، فسار منجوتكين في العام التالي ، وحاصرها حصاراً شديداً حتى اضطر أميرها إلى الاستتجاد بالإمبراطور البيزنطي ثانية وكتب إليه يقول : " متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية ومتى أخذت أنطاكية أخذت قسطنطينية " (٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٥١ - ١٥٢ .

Lane Poole ; A History of Egypt in the middle Ages P. P. 147 - 148 .

(٢) تولى إمارة حلب بعد وفاة أبيه سعد الدولة وأخذ الجند البيعة له في شهر رمضان سنة ٣٨١هـ .

ابن العديم : ج١ ص ١٨٢ هامش (٢) وانظر ابن الأثير : ج٢ ص ١٥٤ ونيل تجارب الأمم ص ٢١٧ .

(٣) أبو المحاسن : ج٤ ص ١١٩ - ١٢٠ .

لما رأى باسيل الثانى الخطر الذى يهدد بلاده من جراء هجوم الفاطميين على حلب عول على المسير إليها بنفسه ، فاستولى على حصن شيزر ، ثم فتح حمص ، وأخذ يتابع سيره حتى وصل طرابلس . ولما تعذر عليه فتحها عاد إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام^(١) .

وعندما وقف العزيز على مدى تقدم البيزنطيين فى بلاد الشام استقر رأيه على أن يسير بنفسه لصد قواتهم ، فجهز حملة برية ، كما أمر عيسى بن نسطورس ببناء أسطول حربى ضخيم فى دار صناعة المقس عام ٩٩٥م / ٣٨٥هـ وكان المشروع يرمى إلى بناء ستمائة سفينة جديدة بعضها من حجم كبير^(٢) غير أن هذا الأسطول اشتعلت فيه النيران بميناء المقسى وأحرقت منه ستة عشر مركباً . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس المصريين فاتهموا الروم بتدبير مؤامرة إحراقه ، وقتلوا فريقاً كبيراً منهم ، وما لبث العزيز أن قضى على هذه الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة بسبب إحراق الأسطول^(٣) ثم أمر بإنشاء أسطول آخر ، فلبى وزيره عيسى بن نسطورس رغبته وشرع فى جمع الأخشاب وأمر الصناع بالإسراع فى إنجازه^(٤) ، ولما

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٦٦ .

(2) Lane Poole : A History of Egypt p. 112 .

أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٣٠٤ .

(٣) نسب هذا الحريق إلى مؤامرة عملاء بيزنطة ، ولهذا قبضت الدولة على مائة من التجار اليونانيين وأعدمتهم .

أرشيبالد لويس : ص ٣٠٤ Lane Pool : op. cit. P. 120

(٤) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

تم بناؤه (١) أبحر إلى أنطرطوس (٢) ، غير أن معظم سفنه سرعان ما تحطمت على أثر هبوب عاصفة عليها وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصري (٣) ، أما الحملة البرية فخرج على رأسها الخليفة العزيز بنفسه إلى بليس ، لكن المرض اشتد عليه فجأة ، فتخلف بها وتوفي سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م (٤) .

ظل البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين ، فلما خرج أهل صور على طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م بزعامه رجل ملاح يعرف بعلاقة ، اتخذ عملة جديدة نقش عليها هذه العبارة : " عز بعد فاقة للأمير علاقة " وأعلن استقلال مدينته (٥) فأرسل برجوان الذي كان يلي إذ ذاك الوصاية على هذا الخليفة - حملة كبيرة بقيادة " جيش بن الصمصامة الكتامي " إلى صور ، وكان " علاقة " الثائر بها قد استجد بالإمبراطور بإسبيل الثاني فبعث إليه بإمدادات في البحر ، ورأى برجوان من ناحية أن ينفذ إلى مياه صور بعض سفن الأسطول المصري . فحوصرت المدينة من البر والبحر ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهى الأمر فيها بسقوط صور في أيدي القوات الفاطمية وهزيمة البيزنطيين (٦) وحليفهم الأمير " علاقة " الذي أسر وأرسل إلى القاهرة حيث قتل ، وواصل " جيش بن الصمصامة

(١) يشير لين بول إلى تفوق المصريين وقدرتهم البحرية أنهم أنزلوا للماء بعد ثلاثة شهور فقط (منذ الحريق) سفنا من خير أنواع السفن ، AHist, of Egypt P. 121 ، أرشيبالد ديويس : ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) من أعمال طرابلس بلبنان وتقع على ساحل البحر .

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ١٨٧ .

(٤) أبو المحاسن : ج ٤ ص ١٢٢ .

(٥) حتى : تاريخ سورية ص ٢١٣ .

(٦) Wiet (Gaston) : l'Egypte Arabe P. 148 - 149 .

الكتامي " سيره إلى أفامية Aphamea - شمال سورية - وهناك التقى بالبيزنطيين فتغلب عليهم وأخذ يطاردهم حتى أبواب أنطاكية (١) .

وعلى الرغم من تتابع انتصارات الفاطميين على البيزنطيين في شمال الشام ، فإن " برجوان " عول على مهادنتهم ، ليتسنى له التفرغ للقضاء على الفتن الداخلية بمصر فأرسل إلى باسيل الثاني يقترح عليه عقد الصلح ، فرحب الإمبراطور البيزنطي بهذه الدعوة وأنفذ سفيراً إلى الخليفة الفاطمي ليتفق معه على شروط الصلح ، وبينما كانت المفاوضات تدور بالقاهرة ، غزا باسيل بلاد الشام لوقف زحف القوات الفاطمية إلى أنطاكية وكاد مشروع الصلح ينهار لولا الفشل الذي لحق بالإمبراطور في هجومه الجديد فأرشد مسرعاً نحو أرمينية ، وأثر استتباب السلم في حدود بلاده الجنوبية حتى يتفرغ لمواجهة البلغار (٢) .

استؤنفت على أثر ذلك المفاوضات في القاهرة بين رجال الدولة المصرية والسفير البيزنطي ، ولما تم الاتفاق على شروط الصلح ، انتدب " برجوان " أريسطيس " بطريرك بيت المقدس لمصاحبة السفير البيزنطي في

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٨١ - ١٨٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ .

(٢) جمال سرور : سياسة ص ٢٤٢ - ص ٢٤٣ ويذكر ارشيبالد لويس : القوى البحرية ص ٣٠٥ : " أنه في خلال العشرين سنة التالية لم تحدث سوى اشتباكات طفيفة بين الإمبراطوريتين على الرغم من وجود خلافات ومنازعات قوية بين القاهرة والقسطنطينية . ذلك أن باسيل الثاني سخر كل قوى الإمبراطورية ، واستغل قدراته ومواهبه العسكرية البارعة في مواجهة مشاكل البلغار حتى سنة ١٠١٨م / ٤٠٩هـ حين خضعت بلادهم نهائياً وانضمت للقسطنطينية راجع أيضاً

Runciman : Byzantine Civilization P. 49 .

سفره إلى القسطنطينية لعرض هذه الشروط على الإمبراطور وإقرارها منه .
فقام أريسطيس " بهذه المهمة ، وتم بذلك إبرام معاهدة صادقة بين مصر
والدولة البيزنطية تقرر فيها ما يأتي :

- ١ - تظل الهدنة قائمة بين مصر والدولة البيزنطية مدة عشر سنوات^(١) .
- ٢ - يتمتع المسيحيون الذين يقيمون في أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينية
ويسمح لهم بتجديد كنائسهم وبناءها .
- ٣ - يتعهد الإمبراطور باسيل الثاني بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب .
- ٤ - احتفاظ بيزنطة بما تحت يدها من الأراضي السورية وزادت عليه قليلاً ،
أما الشواطئ فبقيت في قبضة الفاطميين^(٢) .

على أن الإمبراطور البيزنطي سرعان ما قطع علاقته بالدولة الفاطمية
حين وصلته أنباء سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى ، إذ بدأ الحاكم ينتهج
سياسة الشدة مع غير المسلمين من رعاياه سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م ، ثم تجلى
عنفه في معاملتهم سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م فحتم عليهم لبس أزياء خاصة ، ولم
يمضى على ذلك ثلاث سنوات حتى اتسع نطاق اضطهاد النصارى واليهود ،
فأمر الحاكم بهدم بعض الكنائس في القاهرة وفي الوقت الذي اشتد فيه
اضطهاد الذميين تقلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني وقد أشار هذا

(١) أبو المحاسن : ج٤ ص ١٩٢ .

Lane Poole: A Hist, of Egypt P. 136.

(٢) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣٠٥ ويعلق على ذلك بقوله : " وهكذا
أجبر البيزنطيون على اقتسام السيطرة على مياه شرق البحر المتوسط مع البحرية
المصرية القوية " .

الوزير على الخليفة الفاطمي الحاكم بوجوب هدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس ، فأصدر مرسوماً بهدمها (١) . ولم يقف اضطهاد الحاكم للذميين عند هذا الحد ، بل ألغى جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة بأعمال مصر ، وترتب على تلك السياسة دخول كثير من كتاب الذميين في الإسلام وتبعهم فريق من عامة النصارى ، كما هاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة ، وأجاز لهم الحاكم هذه الهجرة وأذن للمهاجرين منهم بحمل أموالهم .

على أن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد ، فأصدر قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود ورد ما أخذ من أوقاف الكنائس والأديرة ، وسمح للمسيحيين بتجديد الكنائس كما منحهم أماناً أمنهم فيه على نفوسهم ودمائهم وأولادهم وأموالهم (٢) .

وظل الحال على ذلك إلى أن توفي هذا الخليفة (٣) ، وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٥ م) فحاولت عمته ست الملك - التي قامت بالوصاية عليه - توطيد العلاقة بين مصر والدولة البيزنطية ، وتنفيذاً لهذه الرغبة أرسلت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيراً إلى باسيل الثانى ليعمل على عقد أواصر الصداقة بين الدولتين ، وليخبره بالإجراءات التى اتخذت فى القاهرة لرفع الحيف عن النصارى ، وتجديد بناء

(١) تاريخ يحيى بن سعيد : ص ١٩٤ .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد : ص ٢٣٢ .

(٣) فى ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ الموافق ٤ ابرابر سنة ١٠٢١ م فقد الحاكم بأمر الله ولم يعرف له خبر ، وعلم بعدها أنه قتل فى الجبل الشرقى فى حلوان بدسيسة من أخته ست الملك . محمد مختار : التوفيقات الإلهامية ص ٤٤٣ .

الكنائس ، بيد أن هذه السفارة لم تأت بطائل ، وظلت غارات البيزنطيين تتوالى على شمال الشام حتى سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م حيث أنفذ الظاهر سفارة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن (سنة ١٠٢٥ - ١٠٢٨ م / ٤١٦ - ٤١٩ هـ) (١) . لعقد الصلح ، فتم الاتفاق بين الفريقين على إبرام معاهدة تضمنت شروطاً التزم تنفيذها كل من الخليفة الفاطمي والإمبراطور البيزنطي وفيما يلي هذه الشروط (٢) :

١ - أن يسمح للإمبراطور البيزنطي بإعادة بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس .

٢ - أن يسمح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم عدا التي حولت إلى جوامع .

٣ - ترك الحرية للمسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام في عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم (٣) .

٤ - أن يعين الإمبراطور البيزنطي بطريقاً في بيت المقدس .

(١) توفي باسيل الثاني فجأة وهو في الثمانين من عمره سنة ١٠٢٥ م / ٤١٦ هـ وتمثل وفاته نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية نظراً لما أعقب هذه الوفاة من إنحلال ظاهر في أحوال تلك الإمبراطورية الخارجية والداخلية ، ذلك أن باسيل الثاني لم يترك ولداً يرثه فاتفرد أخوه قسطنطين الثامن بعرش الإمبراطورية ، Ostrogorskh: op. cit. p. 283. سعيد عاشور: أوروبا في العصور الوسطى ج ١ ص ٤٢٥ .

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي : ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

G. Wiet: Histoire de la Nation Egyptienne (l'Egypte Arabe) P.P. 222 - 223.

(٣) المقرئزي : خطط ج ١ ص ٣٥٥ .

٥ - ألا يقوم الفاطميون بأى عمل عدائى نحو حلب حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التى كانت تدفعها للدولة البيزنطية منذ عام ٩٧٠م / ٣٦٠هـ .

٦ - ألا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأى عدو من أعداء الدولة البيزنطية خاصة أهل صقلية ، الذين هددوا هذه الدولة ، وعاثوا فى جزر بحر الأرخبيل ، وكان الإمبراطور البيزنطى يخشى إنضمام الأسطول الفاطمى إلى هؤلاء فيتعذر عليه إخضاعهم .

وفى مقابل هذه الشروط يتعهد الإمبراطور بما يأتى :

١ - أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة فى جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية .

٢ - أن يعيد بناء جامع القسطنطينية .

٣ - أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين فى قبضة الروم .

٤ - ألا يقدم الإمبراطور أية مساعدة لحسان بن مفرج بن الجراح صاحب الرملة الذى خرج على الخليفة الظاهرة والفاطمى .

٥ - أن يسحب الإمبراطور طلبه الخاص بالاستعاضة عن شيزر بأفامية .

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى هذا الصلح أن الإمبراطور البيزنطى تعهد بإعادة بناء جامع القسطنطينية ، وكان البيزنطيون قد أقدموا على هدمه حين بلغهم هدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ثم أعادوا بناءه فى أيام الظاهر الفاطمى (١) .

(١) يذكر المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٥٥ فى حوادث سنة ثمان عشرة (وأربعمئة) أن " وقعت الهدنة مع صاحب الروم وخطب للظاهر فى بلاده ، وأعاد الجامع بـقسطنطينية وعمل فيه مؤنناً فأعاد الظاهر كنيسة قمامة بالقدس " .

وقد رمى البيزنطيون من وراء بناء مسجد للمسلمين فى القسطنطينية إلى تحسين علاقاتهم بالدول الإسلامية ، فيخطبون للفاطميين تارة وللعباسيين تارة أخرى ، ويهدمون هذا المسجد إذ تعرض المسلمون لكنيسة القيامة ببيت المقدس (١) .

لم يلبث البيزنطيون أن نقضوا هذا الصلح سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م وانضموا إلى أعداء الفاطميين ، وأغاروا على بلاد الشام ويقول أبو الفد (٢) : " وفى سنة ٤٢٢هـ سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج بن الجراح الطائى ، وهو مسلم ، وكان قد هرب إليهم حين انهزم على الأردن من معسكر الظاهر العلوى ، فسار مع الروم إلى الشام وعلى رأس حسان المذكور علم فيه صليب ، ووصلوا إلى فامية فكبسوها ، وغنموا ما فيها وملكوا قلعتها وأسروا وسبوا " .

ويتضح من انحياز الأمير حسان بن مفرج بن الجراح الطائى إلى جانب البيزنطيين تغليبهم مصالحه الخاصة على المصلحة العامة .

تحسنت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين فى أوائل عهد المستنصر بالله (٣) (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) فعقد هذا الخليفة هدنة مع

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٨ .

(٢) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) هو أبو تميم محمد بن الظاهر ، ولد فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٤٢٠هـ / ٤ يوليو ١٠٢٩م وبويع بالخلافة فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ وهو فى السابعة من عمره وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٦٩ .

الإمبراطور ميخائيل الرابع (١) سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م تقضى بأن يطلق الروم " خمسة آلاف أسير ليتمكن من عمارة قمامة (كنيسة القيامة) التى كان قد خربها الحاكم فى أيام خلافته ، فأطلق الأسرى ، وأرسل من عمر قمامة ، وأخرج ملك الروم عليها أموالاً جليلة " (٢) .

ولما ولى قسطنطين التاسع (٣) الحكم حافظ على استمرار العلاقة الودية مع الفاطميين ، فبعث إلى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م هدية عظيمة " اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر ، قيمة كل قنطارة عشرة آلاف دينار عربية " (٤) .

فيضان نهر النيل وأثره على الإنتاج الزراعى فى مصر فى العصر الفاطمى الأول :

لا شك أن الإنتاج الزراعى تعرض لعدة عوامل فى نواحي البلاد المصرية ، كان لها تأثير بالغ فى كمية إنتاجه ، وكان نقص فيضان نهر النيل من أهم العوامل المؤثرة فى ندرة المحاصيل الزراعية . وكان هذا طبيعياً فى بلد تعتمد زراعته فى المقام الأول على الرى من ماء النيل . فمساحة الرقعة الزراعية وكمية المحصول تتوقف على مدى ما يغمره ماء الفيضان من الأرض .

(١) ميخائيل الرابع : (البلافلجونى) حكم من سنة ١٠٣٤ - ١٠٤١م / ٤٢٦ -

٤٣٣هـ ، عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٤٠ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٦٢ .

(٣) قسطنطين التاسع مونوماخوس ، تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية من ١٠٤٢م إلى سنة ١٠٥٤م / ٤٣٣هـ .

(٤) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ج ٢ ص ٥٤ .

ويروى الكندي عن محفوظ بن سليمان - عامل خراج مصر في عهد هارون الرشيد - " إذا تم الماء ستة عشرة ذراعاً فقد وفي خراج مصر ، فإذا زاد بعد ذلك ذراعاً واحداً زاد في الخراج مائة ألف دينار لما يروى من الأعالى من الأعمال ، فإذا زاد بعد ذلك ذراعاً نقص مائة ألف من الخراج لم تستبحر من البطون " (١) وأحياناً كان النيل يصل إلى حد الوفاء ثم يعقب ذلك هبوط سريع مفاجيء قبل أن يتم رى جميع الأراضي (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن فيضان نهر النيل ظل منخفضاً من سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م حتى الفتح الفاطمي لمصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م (٣) وترتب على ذلك ندرة المحاصيل الغذائية فيذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٥٨هـ " أنه لما مات كافور الأخشيدى صاحب مصر ، وقع غلاء شديد حتى بلغ الخبز كل رطلين بدرهم والحنطة كل وبة بدينار وسدس . فلما بلغ الخبر بهذه الأحوال المعز وهو بأفريقية سير جوهراً إليها (٤) . وحينما دخل جوهراً مصر في هذه السنة ، كان مما نظر فيه أمر الأسعار فضرب جماعة من الطحانيين . وجمع سماسرة الغلال بمكان واحد ، فكان لا يخرج قدح قمح إلا ويقف عليه سليمان بن عزة المحتسب ، واستمر الغلاء إلى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١م (٥) .

(١) الكندي : فضائل مصر ص ٦٠ تحقيق إبراهيم العدوى .

(٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٧٩ .

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ص ١١٤ نشر كراتشوفسكى وفاسيليف باريس سنة ١٩٢٤م .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٣١ القاهرة سنة ١٣٥٣هـ ، ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ص ٢٠١ تحقيق زكى حسن القاهرة سنة ١٩٥٣م .

(٥) المقرئى: أغاثة الأمة بكشف الغمة ص ١٣ - ١٤ تحقيق / محمد مصطفى زيادة .

ولما انخفض منسوب ماء النيل سنة ٣٨٧ / ٩٩٧م فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، قل إنتاج القمح تبعاً لذلك ، وفى سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م بلغ فيضان النيل خمسة عشر ذراعاً وسبعة أصابع ، وانتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً وأصابع فارتفعت الأسعار (١) .

وفى سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م غلت الأسعار لنقص النيل إلى ثلاث عشر ذراعاً وأصابع مما ساعد على اشتداد موجة الغلاء ، حتى بلغ سعر الحملة من القمح (الدقيق) إلى ست دنائير والتليس من القمح أربعة دنائير والويبة من الأرز بدينار (٢) .

ومما يجدر ذكره أن المصريين لم يعرفوا فى ذلك العصر كيف يتحكمون فى مياه النيل عن طريق السدود والقناطر . وإنما كانت الأرض تروى مرة واحدة فى العام وقت الفيضان ، فإذا جاء الفيضان دون معدله تعذر رى الأرض وزراعتها ، وتعرضت البلاد للقط والمجاعات ، وكان يكفى أن ينتشر خبر قصور النيل حتى يسود الخوف وترتفع الأسعار ويختفى الخبز والغلال (٣) .

وكان الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى قد فكر فى تلافى الأخطار التى تعرضت لها مصر من جراء فيضان النيل وانخفاضه ، فاستدعى الحسن بن

(١) نفس المصدر ص ١٤ .

(٢) المقرئى : اتعاط الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء ص ٣٠٥ تحقيق زيادة والشيال .

Stanley lane poole: A History of Egypt in the middle Ages. P. 128.

(٣) سعيد عاشور وعبد الرحمن الرافعى : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٦٠ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ .

الهيثم البصرى لما بلغه ما قاله : " لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص " ثم طالبه بتنفيذ ما وعد به من أمر النيل ، وأرسل جماعة من الصناع إلى الموضع المعروف بالجنادل ، قبلى مدينة أسوان ، وخبر النيل هناك ، فلم يجده كما بلغه من قبل ، كما لم يجد الأمر متفقاً مع فكرته التى خطرت له فاعتذر للحاكم بأمر الله (١).

استغل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية فى دولته ، فأرسل على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه أن يمدّه بأربعمائة ألف أردب من القمح ، فأظهر الإمبراطور استعداداً لإجابة هذا الطلب ، لكنه لم يلبث أن توفى وخلفه الإمبراطور ثيودورا (١٠٥٤ - ١٠٥٦م / ٤٤٦ - ٤٤٨هـ) فاشتترط لمعونة مصر أن يمدّها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أى معتد ، غير أن المستنصر رفض الموافقة على هذا الشرط ، فأجابته ثيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر (٢) .

أثارت سياسة هذه الإمبراطورة غضب الخليفة المستنصر ، وعول على محاربتها فجهز جيشاً تحت قيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم ، وما لبث هذا القائد أن نزل بالقرب من أقامية ، ثم تجول فى أعمال إنطاكية (٣) فأنفذت

(١) انظر : ابن العبرى (جريجوريوس) تاريخ مختصر الدول ص ٣١٦ وما بعدها .
تحقيق / صالحانى ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ص ٥٥١ ،
بيروت سنة ١٩٦٥م .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦ .

(٣) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٣٥ .

الإمبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة ، وأسر هو وكثير من جنده سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥ - ١٠٥٦م وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضي أبي عبد الله القضاعي بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلافات بين الدولتين .

القاضي أبو عبد الله القضاعي رسول المستنصر :

يقول ابن خلكان (١) في ترجمته عن القضاعي (٢) : " أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكيم بن إبراهيم ابن مسلم القضاعي (٣) الفقيه الشافعي " ، ويشير ابن خلكان (٤) . في حديثه عن الظاهر الفاطمي أنه استوزر نجيب الدولة أبا القاسم علي بن أحمد الجراجرائي (٥) - وكان أقطع اليديين من المرفقين - سنة

(١) وفيات الأعيان : ج٤ ص ٢١٢ .

(٢) القضاعي : بضم القاف وفتح الضاد المعجمة وبعد الألف عين مهملة نسبة إلى قضاة ويقال أن عمرو بن معد بن عدنان، من حمير وأنه كان ملكاً على بلاد "الشحر" بين عمان واليمن ، قال البكري : كانت مساكنهم بين جدة وذات عرق (بقرى مكة) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٢١٣ ، الزركلي : الأعلام ص ١٩٩ .

(٣) قال ابن خلدون : كان لقضاة ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق واستعملهم الروم على بادية العرب ، يعني في مشارف الشام وقال : إن في كتب الحكماء الأقدمين من يونان " ذكر للقضاة وحروبهم ، ونقل الهمداني عن ابن منبه أن قبر " قضاة " اكتشف في اليمن أيام عمر ذي الأذعار الحميري وفيه عمود أخضر كتب عليه بالمسند : " هذا قبر قضاة ابن مالك بن حمير " وقال اليعقوبي " كانت تلبية قضاة في الجاهلية إذا حجت : " لبيك عن قضاة ، لربها دفاعة ، سمعاً له وطاعة " . الأعلام : ج٥ ص ١٩٩ دار العلم للملايين بيروت - لبنان .

(٤) وفيات الأعيان : ج٣ ص ٤٠٧ .

(٥) انظر : بن منجب الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ .

٤١٨هـ / ١٠٢٧م، وكان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله
القضاعى (١) .

تولى أبو عبد الله القضاعى القضاء بمصر ، وتوجه رسولاً إلى الروم
وله عدة تصانيف منها كتاب " الشهاب " وكتاب " مناقب الإمام الشافعى
رضى الله عنه وأخباره " وكتاب " الأنباء عن الأنبياء " و " تواريخ
الخلفاء " (٢) وله كتاب " خطط مصر " وكان كما ذكره الأمير أبو نصر بن
ماكولا فى كتاب " الأكمال " متفنناً فى عدة علوم (٣) .

أوضاع الدولة البيزنطية أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى)

تدهورت الأوضاع السياسية فى الدولة البيزنطية منذ وفاة الإمبراطور
باسيل الثانى سنة ١٠٢٥م / ٤١٦هـ ودخلت بيزنطة فى فترة من الفوضى
والاضطراب كانت بداية لانهيار عام للدولة فى تنظيماتها العسكرية ونظمها
الاجتماعية والاقتصادية . فبعد وفاة باسيل الثانى خلفه أخوه قسطنطين الثامن
(١٠٢٥ - ١٠٢٨م / ٤١٦ - ٤١٩هـ) وكان عمره سبعون سنة وشغله
الشاغل إتفاق الأموال الكثيرة التى جمعها باسيل الثانى . ولم يهتم هذا

(١) قطعها الخليفة الحاكم والد الظاهر فى شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمئة على
باب القصر البحرى بالقاهرة ، وحمل إلى داره ، وكان يتولى بعض الدواوين فظهرت
عليه خيانة قطع بسببها ، ثم بعد ذلك ولى ديوان النفقات سنة تسع وأربعمئة ابن
خلكان : وفيات ج٣ ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٢) وهذا الكتاب اسم " عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف " وهو مخطوط بالمكتبة
الأهلية ببائرس رقم ١٤٩١ ودار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ١٧٧٩ تاريخ .
(٣) ابن خلكان : ج٤ ص ٢١٢ .

الإمبراطور العجوز إلا بسباق الخيل والصيد والشرافة في الأطعمة والمشروبات بالإضافة إلى ما عرف به من غباء إذ ترك تصريف أمور الدولة في أيدي جماعة من الطواشية واشترى السلام من البرابرة الذين هددوا الدولة البيزنطية^(١) . ونجحت الإمبراطورة زوى Zoe ابنة قسطنطين الثامن - بعد موت أبيها - في مساعدة أزواجها الثلاث للوصول إلى عرش الإمبراطورية^(٢) .

وفي عهد قسطنطين مونوماخوس حدثت القطيعة بين كنيسة روما والقسطنطينية سنة ١٠٥٤م / ٤٤٦هـ . فمن المعروف أن حركة الإصلاح الكلونية^(٣) ، التي نادت بالعودة إلى تعاليم السلف وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية كان لها تأثيرها في تجديد شباب البابوية . وكان هدف هذه الحركة إصلاح الكنيسة وتنظيماتها المتداعية والقضاء على أمراض الكنيسة مثل شراء الوظائف الدينية (السيمونية) وزواج رجال الدين والتقليد العلماني^(٤) .

(١) Bury: Roman Emprars. P. 52.

(٢) وهم رومانوس الثالث Romanos III (١٠٢٨ - ١٠٣٤م) وميخائيل الرابع IV Michael (١٠٣٤ - ١٠٤١م) ، وقسطنطين التاسع مونوماخوس Costantine IX Monomachus (١٠٤٢ - ١٠٥٥) .

Vasiliev: Byzantine Empire. I. P. 351.

(٣) حركة إصلاح دينية نسبة إلى دير كلوني

حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٦٢ وعن حركة الإصلاح الكلونية انظر : سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى الطبعة السادسة جـ ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٣ .

(٤) التقليد العلماني : وهو أن يقوم الحكام العلمانيون من أباطرة وملوك وأمراء بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية .

وفي منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تولى كرس البابوية فى روما البابا ليو التاسع ، الذى قام بالتدخل فى الشئون الكنسية ، بل وفى مجال الأمور السياسية واقتنع البابا بضرورة انتشار النفوذ البابوى فى شئون الأقاليم البيزنطية فى جنوب إيطاليا وتأكيد السمو الروحى للبابوية . وكان من الطبيعة أن تقاوم الكنيسة اليونانية البيزنطية مثل هذا التدخل مما ساعد على حدوث الشرارة التى فجرت الاختلافات القديمة العميقة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية. وفى صيف سنة ١٠٥٤م / ٤٤٦ أرسل البابا ليو التاسع وقدأ إلى القسطنطينية برئاسة الكاردينال المتكبر همبرت Cardinal Humbert لى يشرح رأى البابوية إلى البطريرك البيزنطى كيرولاريوس Cerularius الذى كان من أقوى الرجال الذين تولوا كرسى كنيسة القسطنطينية . ويبدو أن مسالك الوفد البابوى كان مشوباً بالتعالى وعدم الاحترام ، وأبدى البطريرك البيزنطى شعوراً مماثلاً مما جعل الاختلافات بين الطرفين تصل إلى ذروتها. وامتدت الاختلافات من وجهات النظر إلى التفاصيل الجزئية مثل المذهب والطقوس وعدم زواج رجال الدين واستخدام الخبز غير المخمر والصيام وما إلى ذلك . وعندما رفض البطريرك تقديم أية تنازلات لكنيسة روما وضع همبرت قرار الحرمان على مذبح كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية معلناً اللعنة على البطريرك ميخائيل كيرولاريوس وأتباعه الهرطقة الذين وصفهم بأتباع الشيطان . وعقد البطريرك ميخائيل اجتماعاً دينياً أصدر فى نهايته قرار الحرمان ضد الوفد البابوى ومن يشايهم وكل المتصلين بهم الذين وفدوا " إلى المدينة التى يحرسها الله مثل الرعد..." (١) .

(1) Vasiliev: Byzantine Empire I. PP. 337-339

، حسنين ربيع : نفسه ص ١٦٤ - ص ١٦٥ ،

Vryonis : Byzantium. p. 139.

وهكذا حدثت القطيعة الكبرى التي كانت نتيجة لعلاقات سلبية معقدة عبر قرون عديدة ماضية تمثلت فى الفروق الثقافية والسياسية والاقتصادية بين العالمين الغربى والشرقى ، وانعكست فى الاختلافات بين الكنيستين حول الزعامة الروحية العالمية وقضايا جزئية أخرى . ورغم أن هذا القطيعة جعلت بطريك القسطنطينية مستقلاً تماماً عن الإدعاءات البابوية فى الغرب وأصبحت سلطته أكثر قوة فى العالم الإسلامى وفى الكنائس الشرقية ، إلا أن هذه القطيعة كانت ذات نتائج خطيرة لأنها قضت على كل احتمالات حدوث أى تفاهم سياسى فى المستقبل بين الدولة البيزنطية والغرب اللاتينى الذى ظل تحت تأثير قوى من البابوية . كما كانت هذه القطيعة الدينية مميتة ومشنومة لأن الدولة البيزنطية كانت فى هذه الفترة فى أشد الحاجة لمساعدة الغرب الأوروبى خاصة فى الوقت الذى اقترب فيه خطر الأتراك السلاجقة من الدولة البيزنطية^(١) .

فشل المباحثات الفاطمية البيزنطية :

أدى ظهور السلاجقة^(٢) ، وتفاقم خطرهم وتهديدهم بلاد الدولة البيزنطية وتهديدهم الفاطميين فى بلاد الشام إلى حرص كل من البيزنطيين

، عبد القادر اليوسف : الإمبراطورية البيزنطية ص ١٢٨ - ص ١٢٩ .

، عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٣٠ - ١٣١ .

(١) Vasiliev: 1. P.P. 338-339.

(٢) السلاجقة : نوع من قبائل الغز الأتراك ، موطنها الأصلى سهول التركستان استقروا فى بلاد ما وراء النهر فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) وقد عرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق .

الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص ٢ ، ص ٣ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٦٧ ، الرواندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٤٥ ، ابن الأثير : ج ٣ ص

والفاطميّين على درء خطرهم^(١) فلما وصل أبو عبد الله القضاعى إلى القسطنطينية ، لم تحفل الإمبراطورة بوجوده ، على حين رحبت برسول طغرلبيك السلجوقى^(٢) . الذى قد إذ ذاك من العراق ومعه رسالة من السلطان يلتمس فيها أن يصلى رسوله فى جامع القسطنطينية ، فأذنت له بذلك ، فدخل وصلى فيه صلاة الجمعة ، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى^(٣) (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ م) ولا غرو فقد كان السلاجقة فى ذلك الوقت أشد خطراً على البيزنطيين من الفاطميّين ، الذين اضمحل سلطانهم فى بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون فى مصر كثيراً من الصعاب^(٤) .

١٧٦ - ١٧٨ . دائرة المعارف الإسلامية جـ ٥ ص ٣٤ - ٣٧ . بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى ص ١٩٨ .
Vasiliev: Op. Cit. Tome 1, P. 467.

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٠ .
(٢) كانت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت تعاني حالة خطيرة من الضعف والإتهاك ، فلم يسع الخليفة القائم بأمر الله إلا أن يعترف بطغرلبيك ، الذى دخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وقام طغرلبيك بالقضاء على ثورة البساسيرى ، ثم أخضع الموصل وديار بكر وغيرها من الأطراف الغربية للدولة . ومنذ ذلك الوقت حل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة العباسية .

ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٥٤ ، ص ٢٥٥ ، ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٤٥٩ ، محمد محمود إدريس : تاريخ العراق والمشرق الإسلامى خلال العصر السلجوقى الأول ص ٩٥ ، ص ٩٩ - ١١٠ مكتبة نهضة الشرق سنة ١٩٨٥ م .

Cambridge med. Hist. Vol. 4. pp. 304-305, Ostrogorsky: op. cit. P. 303.

سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى جـ ١ ص ٤٣١ .

(٣) المقرئى خطط جـ ١ ص ٣٣٥ .

(٤) جمال سرور : سياسة الفاطميّين الخارجية ص ٢٤٦ .

لما وقف الخليفة المستنصر على سياسة الإمبراطورة العدائية إزاءه والإساءة التي لحقت بسفيره ، بعث في طلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها فأرسلت إليه (١) . وكان من أثر انحياز البيزنطيين إلى جانب السلاجقة أن ساءت العلاقة بينهم وبين الفاطميين منذ ذلك الحين حتى قيام الحروب الصليبية (٢) .

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٦ وما يليها .

ويذكر المقرئ : خطط ج ١ ص ٣٣٥ أن القضاة لما أرسل إلى المستنصر يخبره بما حدث أرسل إلى كنيسة قمامة ببيت المقدس وقبض على جميع ما فيها وكان شيئاً كثيراً من أموال النصارى ، ففسد حينئذ ما بين الروم والمصريين حتى استولوا على بلاد الساحل كلها .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦١ .

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) على بن أحمد بن أبي الكرم .
- الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

الداعي إدريس عماد الدين : (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠ م)
- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخص من كتاب عيون الأخبار
تحقيق / محمد اليعلاوي دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٨٥ م .
ابن أبي أصيبعة : (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠ م) أبو العباس أحمد بن القاسم
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء بيروت سنة ١٩٦٥ م .
أماري :

- المكتبة الصقلية .

الأنطاكي : يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) .
- تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي - نشر كراتشوفسكي وفاسيليف باريس سنة ١٩٢٤ .

بدر عبد الرحمن محمد .

- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي ، مكتبة
الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٩ م .
- الأغلبية والأداسة في بلاد المغرب - مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٦ م .

ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) أبو المحاسن جمال الدين يوسف .

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - طبعة دار الكتب المصرية .

حسن إبراهيم حسن :

- تاريخ الدولة الفاطمية الطبعة الرابعة سنة ١٩٨١م

- تاريخ الإسلام السياسى الطبعة التاسعة سنة ١٩٧٩م

حسن إبراهيم حسن و طه أحمد شرف :

- كتاب عبيد الله المهدي القاهرة سنة ١٩٤٧م .

- المعز لدين الله القاهرة سنة ١٩٤٨م .

حسنين ربيع :

- دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية - دار النهضة العربية سنة ١٤٠٣هـ . / ١٩٨٦م .

الحسينى : (عاش فى القرن السابع الهجرى) على بن السيد أحمد

- أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال - لاهور - جامعة البنجاب سنة ١٩٢٣م .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد .

- العبر وديوان المبتدأ والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون بولاق سنة ١٢٨٤هـ .

ابن خلكان : (ت ٦٨١هـ / ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم .

- وفيات الأعيان ، تحقيق / إحسان عباس - بيروت - لبنان .

راشد البرواى :

- حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

الرواندي : محمد بن علي بن سليمان

- راحة الصدور وآية السرور ، ترجمه إلى العربية / إبراهيم الشواربي عبد المنعم حسنين وفؤاد الصياد .

الزركلي : خير الدين

- الإعلام - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان .

ابن سعيد : (٦٧٣هـ / ١٢٧٥م) علي بن موسى المغربي

- المغرب في حل المغرب ، تحقيق : زكي محمد حسن ، وسيدة كاشف ، وشوقي ضيف - القاهرة سنة ١٩٥٣م .

السيد عبد العزيز سالم الدكتور :

- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة - أسكندرية .
عاشور سعيد عبد الفتاح :

- أوربا في العصور الوسطى

الجزء الأول مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦م

سعيد عاشور وعبد الرحمن الرافعي :

- مصر في العصور الوسطى - مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م .
عبد القادر اليوسف :

الإمبراطورية البيزنطية بيروت سنة ١٩٦٦ .

ابن العبري " جريجوريوس " :

- تاريخ مختصر الدول تحقيق الأب صالحاني اليسوعي بيروت سنة ١٨٩٠ .

ابن العديم الحلبي : (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١ - ١٢٦٢م) كمال الدين أبو

حفص أبو القاسم عمر بن أحمد بن .

- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان

ابن عذارى: (توفي أواخر القرن السابع الهجرى) أبو عبدالله محمد المراكشى.

- البيان المغرب نشر دوزى ليدون سنة ١٨٤٨ م .

عمر كمال توفيق الدكتور :

- تاريخ الدولة البيزنطية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية سنة ١٩٧٧ م .

ابن العميد : (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) الشيخ المكين جرجس بن العميد.

- تاريخ المسلمين ليدن سنة ١٦٢٥ م .

أبو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) عماد الدين إسماعيل بن محمد .

- المختصر فى أخبار البشر ، المطبعة الحسينية الطبعة الأولى .

الكندى : (ت سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف

- فضائل مصر ، تحقيق / إبراهيم أحمد العدوى - القاهرة سنة ١٩٧١ م .

لويس : أرشيبالد

- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة / أحمد

عيسى - مكتبة النهضة المصرية .

محمد جمال الدين سرور :

- دار الفكر العربى سنة ١٩٧٦

- سياسة الفاطميين الخارجية

- دار الفكر العربى .

- الدولة الفاطمية فى مصر

محمد محمود إدريس :

- تاريخ العراق والمشرق فى العصر السلجوقى الأول ، مكتبة نهضة الشرق

سنة ١٩٨٥ م .

محمد مختار :

- التوفيقات الإلهامية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٤٠٠ هـ /

١٩٨٠ م .

المقريزى :

- اتعاض الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق / محمد مصطفى زيادة
وجمال الدين الشيال - القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- إغاثة الأمة بكشف الغمة - تحقيق / محمد مصطفى زيادة - القاهرة سنة
١٩٤٠ م .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .
- ابن منجب الصيرفى : (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) أمين الدين تاج الرئاسة
أبو القاسم على .
- الإشارة إلى من نال الوزارة (القاهرة سنة ١٩٣٤ م) .
- ابن ميسر : (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب .
- أخبار مصر طبعة هنرى ماسيه القاهرة سنة ١٩٨٨ م .
- ياقوت الحموى :**
- معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربى - بيروت .
- ثانياً : المراجع الأجنبية :**

- Bury, J.B. Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnenas
English Historical. Review Vol, IV (1889).
- Cambridge Mediaeval History. Vol, IV.
- Diehl (C.), Marcais (G): Le monde oriental de 395 a 1081 (Hist,
du Moyen Age. Tome 3).
- Hittie (philip): History of Syria.
- Lane Poole (Stanley): A History of Egypt in the Middle Ages.
(London 1901).
- Ostrogorsky: History of the Byzantine state.
(Oxford 1956)

- Runciman: Byzantine Civilization.
- Tout (T.F.): The Empire and the papacy
(London 1924)
- Vasiliev (A.A.): Histoire de l'Empire Byzantine Tom i.
(Paris 1932)
- Wiet (Gaston): Histoire de la nation Egyptienne 7 Vols Paris
1931-1940

فهرس

- استيلاء الفاطميين على صقلية ومناقضتهم للنفوذ البيزنطى
فى الشمال الأفريقى ٧
- التدخل البيزنطى فى الشام قبيل انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ١٣
- سياسة الفاطميين تجاه البيزنطيين منذ انتقالهم إلى مصر حتى
عهد المستنصر بالله الفاطمى ٢٠
- فيضان نهر النيل وأثره على الإنتاج الزراعى فى مصر فى
العصر الفاطمى الأول ٣٢
- القاضى أبو عبد الله القضاعى رسول المستنصر ٣٦
- أوضاع الدولة البيزنطية فى أوئل القرن الحادى عشر الميلادى
(الخامس الهجرى) ٣٧
- فشل المباحثات الفاطمية البيزنطية ٤٠
- المصادر والمراجع ٤٣

sharif mahmoud

sharif mahmoud

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رقم الإيداع ٨١٨٣ / ١٩٩٦

I. S. B. N. 977-05-1467-5

المطبعة الإسلامية الحديثة

٤٢ ش دار السعادة - حلمية الزيتون

القاهرة - ت : ٢٤٠٨٥٥٨